

CONDORCET

ALEXANDRE KOYRE

كوندرسيه

منذ ١٥ عاما مات في سجن بور-لا-رين جان أنطوان نيغولا كاريتاس ،
مركز كوندرسيه سابقا والسكرتير الدائم لأكاديمية العلوم وعضو الأكاديمية
فرانسيز وممثل الشعب في المؤتمر الوطني ، وكان قد أدين وصدر الأمر بالقبض
عليه من تلك الجمهورية الفرنسية ذاتها التي كان هو بين أوائل من تمنوها
وطالبوا علنا بتأسيسها ، وبذها به ذهب عصره بأكمله .

وصدق برور^(١) حين عبر خير تعبير إذ قال : « يشغل كوندرسيه مكانا
فريدا في تاريخ الفكر الفرنسي . فهو آخر « الفلاسفة » والوحيد منهم الذي
اشترك اشتراكا فعليا في الثورة . ولم يضع مذهبا خاصا به حقا ، وإنما جمع
كل نظريات سابقه . وإنما لواجدون لديه آراء من فولتير ومن روسو ومن تورجو
ومن هلفيسوس ومن كوندياك ، وقد تشكلت شيئا فشيئا في وحدة منسجمة
آخر ما يعبر عنها كتابه « الوجيز » وهو نوع من الملخصات الفلسفية للقرن
الثامن عشر (٢) .

وليس للقرن الثامن عشر وفلسفته سمعة طيبة ، فهي بما فيها من مزيج
من العقلية الديكارتية ومن المذهب التجريبي الحسي^(٣) تبدو آخر الأمر
متناقضة غير ثابتة . فما يؤخذ عليها ، وما أخذ عليها بصفة خاصة في القرن
التاسع عشر ، أنها فلسفة متطرفة في فرديتها ، سطحية في مذهبها العقلي ،
ساذجة في تفاؤها . كما أخذ عليها إنكارها للحقائق العميقة ، وعلى الأخص
إنكارها للتاريخ وإيمانها بالتقدم .

(١) راجع كوندرسيه : ملخص لوحة تاريخية لتقدم العقل الانساني . طبعة برور ،
باريس ، بوقان ، ١٩٣٣ . المقدمة .

(٢) كانت حياة كوندرسيه رجل الرياضة والاقتصاد والفلسفة والسياسة ، ملخصا لكل
وجوه التطور الفكري في القرن الثامن عشر وللتحول من النظريات إلى الواقع والعمل .

(٣) فيما يتعلق بالمذهب الديكارتي في القرن الثامن عشر عموما ولدى كوندرسيه خاصة
راجع كتاب ف . بويه : تاريخ الفلسفة الديكارتية ، مجلد ٢ ص ٦٤١ .

ولست كل هذه المآخذ خاطئة . فما لا شك فيه أن فلسفة القرن الثامن عشر قد تبدو قليلة العمق ، قليلة الحياة بالقياس إلى ما سبقها أو ما لحقها من مذاهب فلسفية كبرى . ومن المؤكد أيضاً أن القرن الثامن عشر قد تفاعل أكثر من اللازم ، وقد آمن بقوة العقل أكثر مما يجب ، وأنه أخذ مأخذ الجدل ذلك التعريف القديم للإنسان بأنه حيوان عاقل . وأنكر قوة العناصر اللاعقلية ، أو بتعبير أدق أنكر الأساس اللاعقلي لطبيعة الإنسان . كما أنه لم يعترف بالأهمية الاجتماعية والدور الرئيسي لما كان يدعو الآراء السابقة (أى الآراء الصادرة دون فحص) ، وباستغراقه في العمل على هدم بعض « الآراء السابقة » السائدة في ذلك الوقت (الآراء السابقة الاجتماعية والدينية) مستخدماً نور العقل ، تراه قد قلل من تقديره لقوتها ولغاب عند أن الإنسان قادر على أن يستبدل بالآراء السابقة المنهزمة ، « آراء سابقة » جديدة . وهذه المآخذ حق ، ولكنها في رأى أقل خطورة مما يقال وبالأخص مما قيل (١) ولا يحذر أن تؤدي بنا إلى نسيان أن فلسفة القرن الثامن عشر قد أقامت مثلاً أعلى إنسانياً واجتماعياً وأن ذلك المثل سيبقى أمل الإنسانية الأوجد . ولقد رأينا ما تحسره فلسفة القرن الثامن عشر إن تركت الحرية والمساواة والاخاء في سبيل الرغبات العميقة لطبيعة الإنسان اللاعقلية . . . إن ما يفسر قلة التقدير التي هبط إليها القرن الثامن عشر ، هو أنه قد انهزم (٢) والهازمون هم الذين يكتبون التاريخ . وإن ممثلي الرجعية ، الرجعية الرومانطيقية ، والرجعية الرومانطيقية الألمانية بنوع خاص ، هم الذين حددوا أحكامنا التاريخية بل هم الذين عينوا لنا معنى التاريخ . وهم أيضاً الذين أقنعونا أن القرن الثامن عشر قد أنكره .

ويبدو لي أنه ما من خطأ أعظم من الزعم بأن القرن الثامن عشر قد أنكر التاريخ ، وهو زعم لا يمكن الدفاع عنه إلا بالمواقفة على المعنى الرومانطيقى للتاريخ . فاذا لم نفعل ذلك وجدنا أننا على العكس مدينون

(١) يبدو أن تغيراً في رأى قد حدث مؤخراً . راجع مؤلفات ج . ر . كاريه « فونتيل أو بسمه العقل » باريس ١٩٣٢ ، و « تركيب فولتير الفيلسوف » ، باريس ١٩٣٨ .

وراجع أيضاً أ . كاسيريه : *Die Philosophie der Aufklärung*, Tübingen, 1932.

(٢) راجع Bréhier, *Histoire de la Philosophie*, Vol. 2, Paris.

للقرون الثامن عشر ، مدينون لمونتسكيو (١) ولفولتير (٢) ولونتيتلا ولجبون
باكتشاف التاريخ أو إذا شئت بالكشف عنه ثانية ، كما أننا مدينون للقرن
السابع عشر ، مدينون لسبينوزا ، وبيل وماييون باكتشاف المعرفة التاريخية
والنقد التاريخي .

وما لا شك فيه أن رجال القرن الثامن عشر لم تكن تنطوي قلوبهم على
احترام وعبادة وتقديس للتاريخ كما سيفعل الرومانطيقيون .
وما لا شك فيه أيضاً أنهم لم يقدسوا المعرفة التاريخية ، وأنهم كثيراً ما
كانوا يجهلون تفاصيل الماضي (بل أكثر من التفاصيل) . ذلك لأنه لم
يكن لهم ما كان للرومانطيين من حنين إلى الماضي وألم عليه . وإنما على
العكس كانت أبصارهم متجهة إلى المستقبل . والتفكير الرومانطقي (وكل
مذهب تاريخي قد ورث شيئاً من التفكير الرومانطقي) تفكير «نباتي» ،
كما يقول بحق جوستاف هوبنر وهو يعمل في حيز سام مستخدماً استعارات
عضوية وبالأخص استعارات نباتية . فتراهم يتكلمون عن النمو والجذور ،
ويقارنون بين المؤسسات التي تكونت نتيجة لنمو طبيعي *natürlich gewachsen*
وتلك التي تكونت صناعياً *kunstlich gemacht* . أي إنهم يواجهون عمل
الجماعات الانسانية الذي تم بطريقة لاشعورية وغريزية بعملها الشعوري
الارادي ، أي يقارنون بين التقليد وبين التجديد الخ ...

وهذا الفهم للتاريخ أو هذا الاتجاه الذي ينظر إليه كأنه شيء ينمو
بطريقة شبه ذاتية والذي لا يرى في الانسان عاملاً مؤثراً وإنما يعده محصولاً
للتطور التاريخي ولل قوى اللاشخصية فيه أو للقوى التي تمر به ، هذا الاتجاه
لا يرتبط بالضرورة بفلسفة سياسية أو بفلسفة تاريخية رجعية ، فليس النمو جهوداً ،
وليست الشجرة جذراً ولا الزهرة برعماً (٣) . . .

ولكن النمو النباتي عملية بطيئة ، وفي الغالب ما يحتفظ النبات في صورته

(١) إن مونتسكيو هو الذي أعطانا فكرة القوانين التاريخية للتفكير والخاصة بمختلف
الصور الاجتماعية للجماعات الانسانية .

(٢) لقد جدد كتاباً : «قرن لويس الرابع عشر» ، «بحث في الماديات» تأليف التاريخ
مجدداً تاماً .

(٣) إن الفلسفة الهيجلية للتاريخ ، وهي التي تنظر إليه باعتباره عملية نمو ذاتي وتكوين
ذاتي للعقل ، تدعو في نفس الوقت ، إلى تفسير محافظ وإلى تفسير ثوري .

الجديدة بصورته القديمة . وكذلك ترى في المذهب الرومانطيقى اتجاهها إلى المحافظة بل إلى الرجعية . ولما للتقاليد من قيمة كبيرة لدى الرومانطيقين تجد مذهبهم يؤدي إلى معارضة التغيير وإلى السمو بالماضى بل إلى تخيل الكمال فيه . . . (١) ومهما يكن من أمر فيكفي القول بأن فهم الرومانطيقين للتاريخ يتضمن رفع قدر الماضى ، ذلك الماضى الذى يتحقق فى الحاضر ويمتد إلى المستقبل .

والأمر جد مختلف فيما يتعلق بفهم فلاسفة القرن الثامن عشر للتاريخ . فليس التاريخ لديهم قوة لاشخصية تتحقق فى الدنيا ، وإنما هو على العكس محصول عمل الانسان ونشاطه الذاتى . وليس التاريخ شيئاً يصنعنا وإنما هو شئٌ نصنعه نحن ، أى إنه جماع ماصنعه الناس وما يصنعونه وما سيصنعونه أو ما يستطيعون صنعه . ونتيجة لهذه النظرة العملية ، تجد المؤرخ لا يرنو ببصره إلى الماضى وإنما يتطلع إلى الأمام ، ويرى أنه ما من شئٍ أجدر بأن يقص ولا أقص بأن يدرس من تاريخ التقدم ، أى تاريخ تحرر العقل الانسانى تدريجياً ، تاريخ كفاحه قوى الجهل والخرافات التى تكبته أو التى كبتته ، تاريخ النصر الذى ناله الانسان شيئاً فشيئاً باستيلائه على قوى النور والحرية .

والتاريخ بهذا المعنى يبدو لنا كأنه تاريخ كفاح ، تاريخ معركة ضد القوى اللاعقلية التى تعوق تقدم الانسان ، تاريخ الثورة على الماضى فى سبيل المستقبل . وإذن فلا يجب الاحتفاظ بآثار الماضى ولا بالتقاليد والعادات البالية بل يجب على العكس هدمها فى أغلب الأحيان . ومن هنا يدخل التاريخ — أو على الأصح المؤرخ — فى المعركة . فهو عند ما يكشف عن الأصل البسيط للتقاليد وللمعتقدات المقدسة المجلدة يبرنا عدم جدواها فيقتلعها من جذورها ، ويمهد الأرض ويهيئها لبناء جديد ، بناء سيؤسس على العقل فى هذه المرة .

وإنه لمن مفاخر فلسفة القرن الثامن عشر أنها لم ترد تفسير الدنيا فحسب وإنما أرادت تغييرها أيضاً . بل كانت تؤمن أنها قادرة على تغيير الدنيا بتفسيرها ، أو بعبارة أخرى كانت تعتقد أنه يكفى أن تبين للناس أين تستقر

(١) ومثال ذلك السمو بالعصر الوسيط واعتباره مثلاً أعلى .

الحقيقة وأين يكون الخطأ حتى يسيروا - ولا محيص لهم عن ذلك - نحو الحق . وكانت تشعر أن التاريخ يؤيدها في إيمانها بقوة الحقيقة والعقل . وبين لنا كوندرسيه أن الإنسانية قد حققت رقياً دائماً رغم العقبات التي كانت تعوق سيرها إلى الأمام . أوليس من الحق أن سير التقدم منذ زمن ما ، منذ اختراع الطباعة ومنذ الثورة التي شنها ديكارت ، قد زاد بشكل جد محسوس ؟ أوليس من الحق أن انتصار النور في أيامنا في الحضارتين العظمتين الفرنسية والانجليزية ، يبدو كأنه قد هانا من خطر الانتكاس كما حدث في سالف الأيام عند ما أعقبت بربرية القرون الوسطى الحضارة اليونانية العظيمة الباهرة (١) ؟ وهكذا ترى أن تفاؤل كوندرسيه إنما هو تفاؤل مبني على العقل وعلى التجربة . وليس التقدم شيئاً مقدراً لا بد منه ، ولكن تاريخ الإنسانية يبين لنا حقيقته . أوليس من المعقول أن نعتز بأن الإنسانية ، التي عرفت كيف تحصل على الحرية العقلية ، وعلى الحقيقة العلمية ، بل الحرية السياسية لن تدع هذه الغنائم تفلت من يديها ولن تتحول عن نور العقل (٢) ؟

ولن نحاول هنا ان نعرض لكتاب كوندرسيه « الوجيز » ، ولا أن نخلل في تفصيل « العصور » وهي الدرجات لمتابعة التي ارتقى عليها الإنسان ليصل من البساطة الخشنة في حياته البدائية إلى نور الحضارة العلمية والحرية السياسية . وحسبنا أن نعلم أن كوندرسيه يقسم تلك العصور إلى عشرة ، وأنه يعد ديكارت خاتم العصر السابع الذي يمتد « من اختراع الطباعة حتى ذلك العهد الذي استطاعت فيه العلوم والفلسفة أن تتخلص من نير السلطة » . ويقول إن العصر التاسع يمتد « من ديكارت حتى تكوين الجمهورية الفرنسية » وأن العصر العاشر يشمل « تقدم العقل الانساني في المستقبل (٣) » .

والمكان الذي عينه كوندرسيه لديكارت مكان مميز حقاً . ولم يكن ديكارت

(١) وتلك نبوءة حقة ، لأن انتشار النور والمبادئ الديمقراطية في البلاد التي تتكلم الفرنسية والانجليزية ، هي التي انقذت العالم من انتكاس يرجعه إلى البربرية .

(٢) لم يبنأ كوندرسيه بذلك الاندفاع نحو العبودية ، وبذلك البعد عن التفكير الانساني الذين تراهما في أيامنا .

(٣) معرفة الطبيعة وقوانين العقل الانساني تمسكتنا ، في رأى كوندرسيه من معرفة تطورات المستقبل في مجموعها ، لا في تفاصيلها بالطبع .

العقلية الوحيدة التي زعزعت نير السلطة ، فقد سبق « أن كشف باكون Bacon عن الطريقة الحققة لدراسة الطبيعة ولاستخدام الأدوات الثلاث التي وهبتها لنا لتتعمق أسرارها ألا وهى الملاحظة والتجربة والحساب . . . ولكن باكون — وهو الذى امتلك ناصية الفلسفة إلى حد بعيد — لم يجمع بينها وبين العلوم ، وأعجب الفلاسفة بطرقه لاكتشاف الحقيقة التى لم يعط عنها أى مثل — ولكنها لم تغير قط من سير العلوم .

«لقد سبق لجاليليو أن زاد تلك الطرق باكتشافاته المهمة الباهرة . وكان ، على سبيل المثال ، قد علم الناس الوسائل التى تسموهم إلى معرفة قوانين الطبيعة . . . ولكنه وقد اقتصر فقط على العلوم الرياضية والطبيعية لم يستطع أن يطبع فى عقول الناس تلك الحركة التى كانوا ينتظرونها .

« ولقد بقى ذلك الشرف ليحرزه ديكارت الفيلسوف العبرى المقدم . ولقد أوقى عبقرية عظيمة فى العلوم ، وجمع بين القول والفعل حين أبان لنا النهج لايجاد الحقيقة وبعرقها . . . وكان يريد أن يمد طريقته ليستخدمها فى كل نواحي العقل الانسانى ، فكان الاله والانسان والكون ، على التوالى ، موضوعا لتأملاته . . . وكان إقدامه ، حتى فى الخطأ ، معوانا على تقدم النوع الانسانى ، ومحركا للعقول التى لم تستطع حكمة منافسيه أن توقفها . وطلب إلى الناس أن يرفعوا عن كاهلهم نير السلطة وألا يعترفوا إلا بما يمليه عليهم العقل . ولقد لقي آذانا صاغية لأنه استخدم إقدامه وحماسته . ولم يتحرر العقل ولكنه علم أن تكونيه يعده لذلك . . . ومنذ ذلك الحين استطاع الناس أن يتنبأوا أن أغلال العقل لا بد محطمة عما قليل (١) . »

وكبار العباقرة الذين بزغوا فى العصر التاسع ، ذلك العصر الذى سمح فيه أخيرا باعلان حق طالما أنكر ، ألا وهو حق إخضاع كل الآراء للعقل ، أى استخدام الوسيلة الوحيدة التى منحناه لفهم الحقيقة ومعرفتها (٢) ، هم فى رأى كوندرسيه — نيوتن الذى يرجع إليه الفضل فى أن يعرف المرء أخيرا ولأول مرة

(١) أنظر *Essai* من ١٤٣ .

(٢) ص ١٥٩ من *Essai* : لقد تعلم الناس أن الطبيعة لم تكتب عليهم أن يؤمنوا بكلام الآخرين . وهكذا اختفى من الجماعة الانسانية التطير القديم ، وخضوع العقل أمام المعجزات ، اختفى ذلك من الجماعة الانسانية كما اختفى من الذلقة .

أحد القوانين الطبيعية للكون . . . وهو اكتشاف فريد ما زال للآن يعد مجدا لمن وجده (١) ، ثم «لوك الذى أبان أن التحليل المضبوط الدقيق للآراء — وذلك باختزالها إلى آراء أكثر قربا من الأصل وأكثر بساطة فى التكوين — إنما هو الوسيلة الوحيدة لى لا نضل السبيل فى فوضى الأفكار غير التامة ، التى لاوحدة بينها ولا تحديد فيها ، والتى قدمتها لنا المصادفة بلا نظام وتلقيناها نحن بلا تفكير (٢)» ، ثم روسو الذى أصبح بفضل مبدأ المساواة الطبيعية بين الناس «وهو المبدأ الذى دافع عنه سدى بدمه ، والذى أضفى عليه لوك قوة من اسمه .» أقول أصبح بفضل « فى عداد الحقائق التى لم يعد سبيل إلى إنكارها ولا إلى محاربتها (٣) » وكان ذلك العصر فى الواقع هو العصر الذى وصل فيه الكتاب السياسيون إلى أن يعرفوا أخيرا حقوق الانسان الحق وإلى أن يستنبطوها من تلك الحقيقة الوحيدة ، وهى أنه كائن حساس قادر على التفكير وعلى اكتساب آراء خلقية .

« ولقد رأوا أن الاحتفاظ بتلك الحقوق هو الغرض الوحيد من اجتماع الناس فى جماعات سياسية ، وأن الفن الاجتماعى يجب أن يكون فن الاحتفاظ بتلك الحقوق مع تحقيق المساواة التامة . ولما كان من الضرورى أن تخضع الوسائل لضمان حقوق الأفراد لقواعد عامة ، وجب لذلك ألا تكون السلطة فى اختيار تلك الوسائل ملكا لأحد اللهم إلا لكثرة الأعضاء فى الجماعة . لأن أى فرد لن يستطيع أن يتبع رأيه الخاص فى ذلك الاختيار دون أن يخضع الآخر له ، فرغبة الكثرة هى وحدها التى يمكن للجميع قبولها دون مساس بالمساواة (٤) .

« ويمكن كل شخص أن يتعهد مقدما بالانضمام إلى رأى الكثرة فيصبح رأيا رأى للكل . ولكنه لا يستطيع أن يضم إلا نفسه فقط . ولا يمكن أن

(١) فى نفس المؤلف ص ١٧٥ ، يذكر كوندرسيه اسم دالمبرت إلى جانب اسم نيوتن . ولو أنه يضمه فى مرتبة أدنى منه بكثير ، ودالمبرت هو مكتشف القاعدة التى تسيطر على كل أعمال الانسان .

(٢) نفس المؤلف ص ١٥٥ .

(٣) نفس المؤلف ص ١٥٢ .

(٤) من المهم أن نرى كيف يبعث كوندرسيه روح العقل فى مبدأ خضوع الفرد للكثرة فليس فى ذلك خضوع الارادة الخاصة للارادة العامة ، وإنما خضوع الرأى الفردى لرأى الكثرة .

يتعهد - حتى نحو تلك الكثرة - إلا بالقدر الذى لا تمس به حقوقه الشخصية المعترف بها .

« تلك هي حقوق الكثرة على الجماعة أو على أفرادها وحدود تلك الحقوق . وذلك أصل الإجماع الذى يلزم الجميع ماتراه الكثرة ؛ وهو إلزام تبطل مشروعيته عند ما ينتهى وجوده بتغير الأفراد . وما لاشك فيه أن رأى الكثرة فى بعض الأمور كثيراً ما يكون فى جانب الخطأ وضد الصلحة العامة . ولكن للكثرة - حتى فى هذه الحالة - أن تقرر الأمور التى لا يجب أن يرجع فيها رأساً إليها ؛ ولها أن تقرر من تنزل له عن حقها فى إبداء الرأى ، وأن تبين الطريقة الواجب عليهم اتباعها ليصلوا إلى الحقيقة بطريقة أسلم . وليس لها أن تنزل عن إبداء الرأى فى قراراتهم لترى أهى أضرت بالحقوق العامة للأفراد أم لا (١) .

« وهكذا اختفت إزاء هذه المبادئ البسيطة فكرة وجود عقد بين الشعب ورؤسائه ، ذلك العقد الذى لا يلغيه إلا اتفاق متبادل على إلغائه أو خيانه من أحد الطرفين المتعاقدين . كما اختفى أيضاً ذلك الرأى ، الذى يعتبر أقل عبودية ولكنه ليس أقل خطأ من سابقه ، ألا وهو ربط الشعب بالدساتير متى أقرت ، كأن الحق فى تغييرها لم يكن أول الضمانات لسائر الحقوق ، وكأنما تلك المؤسسات تستطيع أن تعيش إلى الأبد ، وهى مؤسسات من صنع الانسان وهو عمل بالضرورة ناقص وقابل للتحسن كلما استنار الناس . وهكذا اضطر القوم إلى ترك السياسة الخادعة الخاطئة التى نسبت أن للناس حقوقاً واحدة بطبيعتهم ، فأرادت حيناً أن تحدد لهم الحقوق على حسب اتساع أراضيمهم ، أو درجة الحرارة فى بلادهم ، أو صفاتهم الوطنية ، أو ثروة الشعب ، أو درجة تقدم التجارة والصناعة لديهم ؛ وأرادت حيناً آخر أن تقسم تلك الحقوق تقسيماً غير عادل بين طوائف الناس المختلفة وفقاً لأصلهم أو ثروتهم أو مهنتهم ، وخلقت بذلك مصالح متعارضة وقوى متضادة لتقيم بعدئذ بينها توازناً أصبح وجوده ضرورياً بموجب تلك المؤسسات ، ولكنه توازن لا يزيل أثرها الخطر (٢) .

« وهكذا لم يعد يجزئ أحد على تقسيم الناس إلى سلالتين مختلفتين ،

(١) ومن هنا ضرورة الخضوع لقرار أو لقانون يعتبره المرء خاطئاً أو سيئاً .

(٢) إنا لنرى هنا هوبز ومونتسكيو .

إحداهما لتحكم والأخرى لتطيع ، إحداهما لتخضع والأخرى لتُخدع . واضطر القوم الى الاعتراف بأن للجميع الحق في أن يتبينوا مصالحهم ويعرفوا الحقائق جميعا ، وبأنه ليس لأية سلطة — حتى التي أقامها الناس على أنفسهم — أن تخفى عنهم أية حقيقة (١) . »

هذه الصفحة الرائعة التي اقتبسناها آنفاً تلخص تلخيصاً وافياً معتقدات كوندريسيه بل إيمانه الديمقراطي الجمهوري . وليس ذلك إيمان كوندريسيه وحده ، وإنما هو إيمان القرن الثامن عشر بأكمله كما يقول لنا كوندريسيه نفسه ، إيمان ذلك العصر الحيد بين العصور جميعاً « عصر تكون أثنائه في أوربا طبقة من الرجال وقفوا أنفسهم على متابعة الخرافات إلى معاقليها حيث أداها وحماها رجال الدين والحكومات والمدارس والنقابات القديمة . رجال وضعوا مجدهم في هدم الأخطاء الشعبية ، أكثر مما اهتموا بتوسيع نطاق المعارف الانسانية ، وتلك طريقة لخدمة التقدم الانساني ولو أنها غير مباشرة إلا أنها ليست أقل الطرق فائدة أو أقلها خطراً (٢) . »

كان حب الانسانية وبغض الظلم يملأ نفوس فلاسفة القرن الثامن عشر . ولهذا كونوا « جماعة فوق الأحزاب يربط أعضاؤها رباط قوى ولمكافحة الأخطاء وكل أنواع الاستبداد . ولما كان شعور الصداقة العالمية يجمع بين أفرادها كانوا لذلك يكافئون الظلم حتى وهو ناء عن بلادهم لا يستطيع أن يصيبهم بأذى ، وحتى لو كان وطنهم هو المسمى إلى شعوب أخرى . ويقومون في أوربا ضد جرائم الجشع التي تدنس شواطئ أمريكا وأفريقيا وآسيا (٣) . »

وأعلنوا « مذهباً جديداً كان جديراً أن يقضى القضاء الأخير على البقية الباقية من الخرافات : ذلك هو مبدأ قابلية تحسن النوع الانساني إلى حد لا نهاية له . وهو مبدأ كان أشهر رسله ورواده هم : تورجو ، بريس ، بريستلي (٤) . »

(١) Essai من ١٤٩ — ١٥١ .

(٢) نفس المؤلف من ١٥٠ .

(٣) نفس المؤلف من ١٦٥ . كان الفلاسفة يكونون جماعة من الكتاب لا تخون رأيها أبداً . ويرى كوندريسيه أن أجدرهم بالذكر هما فولتير وديدرو .

(٤) نفس المؤلف من ١٦٦ . كان أثر تورجو في كوندريسيه عظيماً جداً ، فقد أخذ عنه آراءه الاقتصادية .

وكان كوندرسيه يضع ذلك المذهب فى العصر العاشر، عصر تطور العقل الانسانى وعصر المستقبل . ولهذا مايسوغه ؛ فان ذلك المذهب ، مذهب التقدم ، هو الذى يعبر خير تعبير عن النظرة الجديدة للتاريخ التى تكلمنا عنها آنفاً ، ألا وهى تفضيل المستقبل على الماضى ، وتفضيل العمل على الميراث ، والعقل على التقاليد .

وهذه النظرة هى التى بدت فى الحركتين العظيمتين : الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية ، وهما اللتان تمثلان أو تحققان — فى رأى كوندرسيه — نصر الفلسفة على الخطأ الشائع ونصرا لحرية على الاستبداد .

ومن المهم أن نرى الطريقة التى يحكم بها كوندرسيه على الدور الذى قاست به كل منهما وعلى أهميتهما التاريخية . فالثورة الأمريكية قد أظهرت للعالم « لأول مرة شعباً عظيماً قد تحرر من أغلاله ، وأقام لنفسه دستوراً وقوانين اعتقد أنها خير ما يوصله إلى السعادة » ، وهو دستور وقوانين « جمهورية أساسها الاعتراف الكامل بحقوق الانسان الطبيعية . » وكان الأمريكيون راضين عن القوانين المدنية والجنايئة التى جاءتهم من اغتلترا . ولم يكن لديهم نظام ضرائبى فاسد يستحق التغيير ، ولا استبداد إقطاعى ، ولا فروق وراثية ، ولا تقابات غنية قوية ذات امتيازات ، ولا نظام دينى عديم التسامح . ولهذا اقتصروا على إقامة سلطات جديدة بدلا من التى كانت الأمة البريطانية تمارسها لديهم (١) .

ولهذه الأسباب كانت الثورة الأمريكية أقل كثيراً مما أحدثته من انقلاب من الثورة الفرنسية التى جاءت نتيجة مباشرة حتمية لها .

« كان على الثورة فى فرنسا أن تهتم بالاقتصاد جميعه وأن تغير كل العلاقات الاجتماعية وأن تنفذ إلى آخر حلقات السلسلة السياسية . . . » (٢) ولهذا كانت الثورة الفرنسية ثورة حقيقية ، وبعثاً حقيقياً ، وبناءً جديداً للهيكل السياسى والاجتماعى . ولهذا يرى كوندرسيه أن « المبادئ التى بنى عليها الدستور

(١) نفس المؤلف ص ١٧١ . أما فى فرنسا فقد كانت القوانين المدنية والجنايئة غابة فى السوء ، وكانت العدالة زائفة بسبب شراء الوظائف

(٢) نفس المؤلف ص ١٧١ .

والقوانين في فرنسا أكثر نقاءً ودقة وعمقاً من المبادئ التي ألهمت الأمريكيين . . .
 فقد كان تخلصها من آثار المعتقدات الشائعة أعظم . . . ولم تترك المساواة في
 الحقوق مكانها قط لما يدعى المصلحة العامة وما هي في الحقيقة إلا خدعة . . .
 وأقيم مبدأ تحديد السلطات بدلاً من ذلك التوازن الذي لا قيمة له والذي طالما
 أعجب به البعض . . . (١) فلا أول مرة وفي أمة عظيمة متفرقة بالضرورة وتنقسم
 إلى العديد من المجالس المنعزلة ، جرؤ القوم أن يحتفظوا للشعب بحقه في
 السيادة ، وبحقه في ألا يخضع إلا للقوانين التي تصدر بموافقة المباشرة عن
 طريق ممثليه ، والتي لو مست حقوقه أو مصالحه فإنه يستطيع تغييرها بما له
 من سيادة (٢) .

وكان لا بد للثورة الفرنسية أن تكون ثورة جذرية (راديكالية) أو هي قد
 نجحت بالفعل في أن تكون كذلك . وبفضل جذريتها هذه كان لها أهمية عظيمة
 جدا في تاريخ الانسانية : فهي تحتم تاريخ التحرير ، وتبدأ تاريخ الحرية . ففي الثورة
 الفرنسية وبالثورة الفرنسية استطاعت الانسانية أو استطاع العقل أن يمتلك زمام
 نفسه تماما . فمنذ ذلك الحين ، أصبح المرء سيّد نفسه، وسيّد عمله ، وسيّد
 مستقبله ، سيّد المستقبل الذي يعده هو وقرره هو بمحض إرادته وفكره . ولهذا
 كان العصر العاشر من تاريخ الانسانية ، وهو العصر الذي ندخل فيه ، عصر
 تفضيل المستقبل ، أو كما يقول كوندرسيه عصر التقدم الذي ننشده بارادتنا .
 تقدم فكري وخلقى ، وكوندرسيه لا يفصل أحدهما عن الآخر ، بل هو
 وكل معاصريه يعتقدون أن الفصل بينهما مستحيل ، وأن التقدم الفكري يتضمن
 التقدم الخلقى ويهيء له . ولهذا تراه يرسم لنا صورة مشوقة لعالم متقدم في
 الصناعة والطب والزراعة بفضل تقدم العلوم التي تجدد مناهجها باستمرار
 لتزداد تعمقا في معرفة الحقيقة (٣) عالم عظمّ التعليم ووضع للضرائب والتأمينات
 نظاما عادلا ، فتخلص بذلك مما كان فيه من تفاوت اجتماعي أساسه التفاوت في

(١) وكتلميذ لروسو لا يرى كوندرسيه تقسيم السلطات ولا يوافق على إعجاب
 مونتسكيو بالدستور الانجليزي .

(٢) نفس المؤلف ص ١٧٢ .

(٣) برهن كوندرسيه على بعد نظر عظيم حينما أعلن أن محصول منهج علمي إنما هو شيء
 محدود وأن على العلوم أن تغير مناهجها باستمرار .

الثروات . . . عالم ترى فيه رجالا يدفعهم حب العدالة والحقيقة إلى أن يحملوا مشاعل النور إلى الشعوب التي ما زالت غارقة في ظلمات البربرية (١) . . . عالم يختفى منه الرقّ أولاً ، ثم يتعدم فيه استغلال شعوب المستعمرات ؛ لأن الناس سيجدون في الشعوب الملونة إخوانا لهم ورجالا لهم حقوق مثل حقوقهم . . . وعندئذ ، لن تشرق الشمس في ذلك العالم الرخيّ السالم السعيد إلا على رجال أحرار لا يعترفون بسيادة عليهم اللهم إلا سيادة العقل . . . أما المستعدون والعبيد ، ورجال الدين وآلاتهم من منافقين وأغبياء فلن ، يظهروا بعدئذ إلا في التاريخ وإلا على خشبات المسارح . . . ولن يهتم أحد بهم إلا ليرثي لضحاياهم وللمخدوعين فيهم ، أو ليتحدث في روع عن جرمهم ليقبى الناس على حذر وليعلمهم كيف يعرفون ويخدمون بقوة العقل بواكير ما قد يظهر من جرائم التطير والاستبداد ، ذلك إذا اجترأت على الظهور مرة أخرى (٢) .

الكسندر كوازيه

[بتمج]

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

(١) شعوب المستعمرات وشعوب آسيا وغرب أوروبا .

(٢) Essai ص ٢١٠ .